مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٠، العدد ٢، صيف ١٤٣٥ هـ
صفحة ٣٤١- ٣٦٨

سيد قطب شاعراً
(دراسة وتحليل في خصائصه الشعريّة)

فاروق نعمتي[١*]، علي سليمي[٢]، جهانگير أميري[٣]

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بيام نور، إيران
٢ و ٣. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي، كرمانشاه

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٤/٨/١٩ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٤/٩/٢٢)

الملخّص

سيد قطب، هذا الأديب الناقد الذي نعرفه عبر تراثه الإسلامي والقرآني، أكثر من أشعاره وأدبه. بدأ حياته شاعراً وشارك في ميدان الشعر بعددٍ وافر من القصائد التي نشرت في عدد من المجلّات السائرة آنذاك، ثمّ جُمعت في مجموعة واحدة بعنوان "الشاطئ المجهول"، إلّا أنّ مكانته في التفسير والعلوم الإسلاميّة غطّت شهرته الأدبيّة والشعريّة. ترمي مقالتنا هذه إلى الكشف وإزالة الستار عن أهمّ المقوّمات والخصائص التي تكوّن النسيج الشعري لسيد قطب، آخذاً بنظر الاعتبار أنّ شعره مازال بكراً، فهو أشبه ما يكون بطريق غير واضحة المعالم. ونحاول في هذا المقال إعطاء صورة واضحة شفّافة لشعره ونفض غبار الجهل عنه. يُذكر أنّ الأسلوب الذي اعتمدنا عليه في إعداد هذا البحث هو المنهج التحليلي مع ذكر بعض نماذج شعريّة من ديوان الشاعر.

الكلمات الرئيسية

الخصائص الشعرية، سيد قطب، الشعر المصري المعاصر.

* الكاتب المسؤول
Email: faroogh.nemati@gmail.com

Archive of SID
www.SID.ir

مقدمة

الأدب يتكوّن من عناصر تميّزه عن غيره وتعطيه حياة أبديّة، ومجال الشعر الذي يكون نوعاً راقياً من الأدب هو الشعور، سواء أثار الشاعر هذا الشعور في تجربة ذاتيّة محضة كشف فيها عن جانب من جوانب النفس، أو نفذ من خلال تجربته الذاتيّة إلى مسائل الكون، أو مشكلة من مشكلات المجتمع، تتراءى من ثنايا شعوره وإحساسه. «فإثارة الشعور والإحساس مقدّمة في الشعر على إثارة الفكر، على النقيض من المسرحية والقصّة، فإثارة الفكر من طبيعة العمل الفني فيهما قبل إثارة الشعور، ولذا كان موقف القاصّ أو المسرحيّ من المسائل والمشكلات موقفاً تحليلياً، في حين يظلّ موقف الشاعر في تصويره تجميعيّاً أكثر منه تحليليّاً» (غنيمي هلال، ١٩٦٤، ص٣٨٣). فالشعر يعتمد على شعور الشاعر بنفسه وبما حوله شعوراً يتجاوب هو معه، فيندفع إلى الكشف فنيّاً عن خبايا النفس أو الكون استجابة لهذا الشعور. أضف إلى ذلك أنّ الكلمات والعبارات في الشعر يقصد بها بعث صور إيحائيّة، وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوّة معانيها التصويريّة الفطريّة في اللغة.

سيد قطب[١]، الأديب الذي قدّم حياته في سبيل الدعوة التي آمن بها، والذي لم تُلهِه

---

١. سيد قطب إبراهيم الشاذلي، وُلد عام ١٩٠٦، في قرية «موشا» من محافظة أسيوط في مصر. تخرّج عام ١٩٣٣ من دارالعلوم حاملاً شهادة الليسانس في الآداب. التحق بحركة «الإخوان المسلمين» وخاض في معاركهم التي بدأت منذ عام ١٩٥٤، بدءاً من اعتقاله في نفس السنة، عندما اتّهم الإخوان بمحاولة اغتيال الرئيس المصري «جمال عبدالناصر». أفرج عن سيد قطب في عام ١٩٦٤، ولكنه عاد إلى السجن مرة أخرى وحُكم عليه وعلى مجموعة من أعضاء الإخوان بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم في فجر الإثنين عام ١٩٦٦ (انظر: الخالدي، ١٩٩١، صص٣٢٣-٤٨٢). لقد مارس سيد قطب حياته العلمية أديباً وناقداً ولكن لم يعرفه كثير من الناس إلا كمفكر ومفسّر إسلامي، وذلك من خلال دراساته الإسلامية المتعدّدة مثل «في ظلال القرآن»، «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، «معالم في الطريق» و.... وقد أُهمل ثقافته الأدبيّة والنقديّة من جانب الكثيرين وبذلك، ترك أدبه ومدرسته النقدية في زاوية النسيان. (سرباز، ١٤٣١، ص٤٢) مارس سيد قطب نظم الشعر في فترة مبكرة من حياته، فأخرج ديوانه الأول في عام ١٩٣٥، وديوانه الثاني في ١٩٣٧؛ وكانت الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٠، فترة ازدهار شاعريّته (حسين، ١٩٩٣، صص١٣٧-١٣٨). وله فضلاً عن ديوانه آثار أدبية رائعة، إليك نماذج منها:

أ) التصوير الفني في القرآن الكريم: أول كتاب إسلامي له، يقوم على تقرير القاعدة العامّة المطّردة للتعبير القرآني، وهي قاعدة «التصوير الفنّي»، حيث يستخدم القرآن طريقة التصوير في مختلف موضوعاته وأغراضه. وقد أثّر هذا الكتاب في الدراسات البيانيّة الجماليّة للقرآن، التي ظهرت بعده.

ب) مهمّة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الماضي: أول كتاب نقديّ كتبه سيد قطب وهو في الأصل كان

Archive of SID

www.SID.ir

الحضارة الغربيّة عن الصواب وإدراك ما فيها من حقّ وباطل، بل منحته فرصة المقارنة بينها وبين حضارة الفكر الإسلامي الصحيح، وكانت النتيجة أنّه آمن بالأخيرة عن يقين وثبات، ونقد الأولى وهاجمها انتقاد خبير وهجوم بصير. إنّه فوق هذا كان شاعراً يملك الموهبة، موهبة الإبداع والتذوّق، خلال ثلاثين عاماً مع الشعر، غاص في أعماق النفس البشرية فأخرج لنا عشرات القصائد التي تنمّ عن نفس رقيقة شاعرة، لكنّها عزيزة أبيّة غير هيّابة؛ قصائده هادفة في ظلال الإيمان والعفاف، وأبياته كلمات حسّاسة معبّرة وأساليب رقيقة مؤثّرة، تجعل الإنسان مستمتعاً منتشياً، بل يذوب وجداً مع واقع الدنيا.

في هذا المقال، نستقصي الخصائص والميزات الفنيّة في شعر سيد قطب[1] ونحاول الإجابة عن السؤال التالي:

ما هي خصائص شعر سيد قطب وميزاته؟

دراسات سابقة

هناك دراسات وكتب كثيرة تدرس الجانب الديني من شخصية سيد قطب، ولكن ميزاته الأدبية لم تحظ بالعناية كما هو حقّه؛ فهناك مقالات وبحوث، نذكر منها على سبيل المثال ولا الحصر:

«سيد قطب؛ الكاتب المصري المعاصر» للكاتب علي منتظمي (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طهران، الخريف والشتاء ١٣٧٥ش)؛ يتحدّث فيها عن بعض المحطّات من حياة سيد

محاضرة ألقاها في قاعة كلية دارالعلوم وطبع هذا الكتاب سنة ١٩٣٣م. تحدّث سيد قطب في هذا الكتاب عن: مهمّة الشاعر في الحياة، من هو الشاعر؟، الخيال في الشعر، ذوق الشاعر، التعبيرات الشعرية، وشخصيّة الشاعر.

ج) كتب وشخصيات: كان في الأصل مقالات نقدية كتبها المؤلّف في مجلّات مختلفة كالرسالة، والمقتطف، وغيرهما، ثمّ طبعها بهذا العنوان سنة ١٩٤٦م واختار في الكتاب شخصيات أديبة وتصدّى لتحليل ونقد هذه الشخصيّات وآثارهم الشعرية والنثرية.

د) النقد الأدبي؛ أصوله ومناهجه: هذا الكتاب كان أهمّ أثر نقدي لسيد قطب والذي طبع سنة ١٩٤٨م. تحدّث المؤلف في هذا الكتاب عن مناهج النقد الأدبي

هـ) المدينة المسحورة: قصّة خياليّة أسطوريّة، استوحاها من قصص ألف ليلة وليلة.

١. كان اعتمادنا في هذه المقالة، على ديوان سيد قطب، الذي جمعه وقدّم له «عبدالباقي محمد حسين» في مجلد واحد وطبعه سنة ١٩٩٢م. هذه الأعمال الشعرية جُمعت من مصادرها الأصلية، وهي الدوريات التي كانت ينشر فيها أشعار سيد قطب، مثل: الرسالة، وأبولو، والأهرام، والأسبوع، وغيرها من المجلات والصحف.

Archive of SID

www.SID.ir

قطب والتعريف ببعض آثاره. «نظرة إلى المراحل والخصائص النقدية لسيد قطب» للكاتبين خليل پروينى وحسين چراغى وش (مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، الصيف، ١٣٨٥ش)؛ يتحدّث فيها عن آراء سيد قطب النقديّة وميزاتها. «قياس خاصية تنوع مفردات في الأسلوب: دراسة تطبيقية لنماذج من كتابات محمد مندور وسيد قطب ومحمد غنيمي هلال» للكاتب هومن ناظميان (مجلة اللغة العربية وآدابها، شتاء ١٤٢٧هـ)؛ كانت هذه المقالة دراسة لغويّة في آثار هؤلاء الأدباء ومنهم سيد قطب. «سيد قطب وتراثه الأدبي والنقدي» للكاتب حسن سرباز (مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران (فرديس فارابي)، ربيع وصيف ١٤٣١هـ)؛ يتحدّث عن التأليفات الأدبيّة والنقديّة لسيد قطب. «أصداء شعر العقّاد في شعر سيد قطب» للكاتب حسن أحمد عبدالحميد (مجلة كلية اللغة العربية، القاهرة، ١٤١٦هـ)؛ هذه المقالة رصدت بعض التشابهات بين شعر سيد قطب والعقّاد. «خصائص التصوير الفني في شعر سيد قطب» للكاتبين كمال أحمد غنيم، وحنان أحمد غنيم (مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٨م). يتحدّث فيها عن بعض الجماليّات الفنيّة والبلاغيّة في شعر سيد قطب. «أسلوبية التكرار في التعبير عن شعور الاغتراب: شعر سيد قطب نموذجاً» للكاتبين جهانگير أميرى وفاروق نعمتى (مجلة جامعة القدس المفتوحة، فلسطين (رامالله)، ٢٠١٢م). تدرس هذه المقالة شعر سيد قطب من الناحية الأسلوبيّة التي تعبّر عن الحس الاغترابي لدى الشاعر. في كلّ هذه المقالات والبحوث لم تدرس المعالم الفنيّة والخصائص الشعريّة في شعر سيد قطب وهذا المقال سيتولّى إنجاز هذه المهمّة وهو يكاد يكون جديداً مبتكراً في هذا المجال.

سيد قطب وشعره

بدأ سيد قطب يكتب الشعر، ونشر ديوانه الأوّل «الشاطئ المجهول» سنة ١٩٣٥م. اختيار هذا الإسم للديوان ربّما يرجع إلى أنّ الشاعر «يرى أنّ الحياة هي بحرٌ مجهول الكنه والحقيقة والغاية، وإنّه هو يقف على شاطئ ذلك البحر المجهول» (الخالدي، ١٩٩١، ص٢٢٢). ولكن «لم يحقّق هذا الديوان نجاحاً يتساوى مع ما حقّقته دواوين أبناء جيل سيد قطب، ولم يتوقّف أحد من النقاد الكبار أمام هذا الديوان» (النمنم، ١٩٩٩، ص٢٩)، حتّى إنّ البعض وصف أشعاره «بضعف التعبير أحياناً، وخطابيّته وتقريريّته أحياناً أخرى» (شلش، ١٩٩٤، ص٢٣). لكن كلّ هذا يرجع إلى غلبة الساحة الدينية والسياسية على شخصية وفكر سيد قطب وتجاهل مقدرته الشعريّة والأدبيّة.

Archive of SID

www.SID.ir

في الحقيقة، اتّسم شعر سيد قطب «بعمق النظرة إلى مشكلات الوجود ومظاهر الحياة، وبالتوهّج العاطفي وصدق التعبير عن النفس» (هيكل، ١٩٧٨، ص٣٥٢)، وكان يميل في شعره إلى استخدام الصور والظلال وإضفاء الحياة على الجمادات، وبذلك يُعدّ من الشعراء المصورين، ولا غرابة في ذلك؛ لأن التصوير والتخييل هو الصفة الغالبة على أسلوبه، وإنّ لهذه الصفة جذوراً عميقة راسخة في نفسه وشعوره ومخيلته وأحاسيسه (الخالدي، ١٩٨٩، ص٥٧). تناول سيد قطب في شعره، قضايا مختلفة مثل إحساس الشاعر بالكون، وعلاقته بالله وبالحياة وبالناس، وإحساسه بالزمن، ومثل قضية المرأة والقضايا الاجتماعية والوطنية.[١] اللغة الشعرية عند الشاعر كانت حيّة نابضة، في نسيجها رصانة اكتسبها من خبرته بالشعر القديم؛ ولكنّها في العموم رقيقة عذبة تنأى عن المفردات الغريبة. وسرّ الكلمة عنده يكمن في استمدادها من ضمائر الشعوب، ومن مشاعر الإنسان، ومن صرخات البشريّة، ومن دماء المكافحين الأحرار؛ إذ يقول: «إنّ السرّ العجيب ليس في بريق الكلمات وموسيقى العبارات؛ إنّما هو كامنٌ في قوّة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلولات! إنّه في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حيّة والمعنى المفهوم إلى واقع ملموس» (قطب، ١٩٨٠، ص١٣٨).

يظهر من شعر سيد قطب أنّه أميل إلى التجديد في شعره منه إلى المحافظة ويميل إلى الرومانسيّة باتجاهيه الذهني المتأثّر بمدرسة «الديوان» وشخصيّة العقّاد، والوجداني المتأثّر بمدرسة «أبولو»، حيث نجد في شعره تدفّق العاطفة وحرارتها، وصدق التجربة، وحبّ الحقّ والخير والجمال، وحبّ المثل العليا، وتحليل المواقف الإنسانيّة، والامتزاج بالطبيعة والذوبان فيها، ويدلّ على هذه النزعة الرومانسية في شعره عنوان ديوانه الأول «الشاطئ المجهول»، كما يدلّ عليها عناوين بعض قصائده مثل «النفس الضائعة»، «وحي الخلود»، «حليم النيل»، وغير ذلك.

ويبدو بأنّ سيد قطب كان «أقرب شعراء جيله من روح التجديد الراشد وأشدّهم تأثّراً برائد المجددين عباس العقاد، تنظيراً وتطبيقاً» (عبدالحميد، ١٤١٦، ص١٢٣). كل أشعاره تجارب إنسانية عامّة يمرّ بها كلّ إنسان بصرف النظر عن لغته وثقافته ووطنه وقومه. يخلو شعر سيد قطب من المدح والفخر والهجاء، وكان بعيداً عن الغزل الحسي الفاحش الذي يصدر عن شهوات النفس وملذّاتها، وقلّ في شعره الرثاء، «خوفاً من أن يندرج تحت

١. إنّ سيد قطب نفسه كناقدٍ أدبيّ تولّى نقد شعره فيما بعدُ في ضوء التصوّر الإسلامي، لتبيين انحراف نماذج من شعره عن القيم الإسلامية (أنظر: البدوي، ١٤٠٦، صص١٠٠-١٠١).

Archive of SID

www.SID.ir

اسم شعراء المناسبات» (حسين، ١٩٩٣، ص٣٩٧). الموضوعات التي عالجها سيد قطب في ديوانه هي:

١. التمرّد ٢. الشكوى ٣. الحنين ٤. التأمّل ٥. الغزل ٦. الوصف ٧. الرثاء ٨. الوطنيّات.

مفهوم «الشعر» عند سيد قطب

إنّ سيد قطب كشاعرٍ رومانسي ومن أتباع العقاد في مدرسة الديوان الشعريّة حاول أن يقدّم رؤية جديدة للفنّ الشعري، ووظائفه ومقوّماته الفنيّة. فالأدب عند العقاد هو الذي يعبّر لنا فيه صاحبه «عن الدنيا كما يحسّها هو، لا كما يحسّها غيره، لأنّ الشاعر إنسان له ذوق ومواهب وفهم وتجربة، وأخلاق وعادات لا يشبه فيه الآخرين ولا يشبهه الآخرون فيها...» (العقاد، دون تا، ص١٦٣). فهكذا رأى سيد قطب عند تعريفه عن العمل الأدبي، بأنّه «التعبير عن تجربة شعوريّة في صورة موحية» (قطب، ٢٠٠٦، ص١١). فالشاعر الحقيقي عنده «هو الذي يُحسّ بالحياة إحساساً عميقاً، ويترجم عنها للأحياء...» (قطب، ١٩٩٦، ص١٤)؛ وفي فهمه لطبيعة الشعر ووظيفته، يذهب إلى أنّه «يحدثّك في أعماق نفسك، ويصف لك الشعور الحساس وصفاً غامضاً مبهماً، يدع لشعورك أن ينطلق، ولخيالك أن يتيه، لأنّه لا يضع أمامك مقاييس وحدوداً، ولكنّه يدعك في ميدان فسيح من عالم الروح الرحيب» (قطب، ١٩٩٦، ص١٢). يعتبر سيد قطب الشعر نعمةً من أنعم الحياة وآية من آيات الجمال البارعة، فيقول في قصيدة «سعادة الشعراء» واصفاً حقيقة الشعر:

الشِّعْرُ مِن نعَمِ الحَيَاةِ عَرفتُهُ ... وَعَرفتُ فيه البُؤسَ ضَربةَ لَازِبِ

الشِّعرُ ذَوبُ حُشَاشَةٍ مَسفُوكةٍ ... أَلَماً وَوَجداً فِي حَنِينِ ذَاهِبِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٥٣)

إذاً الشعر عند سيد قطب، هو «الذي يخاطب العاطفة المبهمة أكثر مما يخاطب الفكر المحدود؛ العاطفة التي لا تعرف القيود ولا التحديد، ولكنّها تتيه في كلّ واد» (قطب، ١٩٩٦، ص٦٤). الشعر هو الذي «ينطلق صرخات عميقة قويّة، وأشجاناً وجدانيّة لطيفة، وسبحات علويّة شفيفة، وفرحات رفّافة طليقة» (قطب، ١٩٨٣، ص٧٠). إنّ مهمّة الشعر «يجب أن يكون تعبيراً عن لحظات الإشراق والتهويم، ولحظات التوهّج والانطلاق في النفس الإنسانيّة، تلك اللحظات التي يستحيل فيها الشاعر روحاً أكثر ما تكون تجرّداً، أو حسّاً أشدّ ما يكون توهّجاً» (قطب، ١٩٨٣، ص٧٠).

Archive of SID

www.SID.ir

ميزات شعر سيد قطب وخصائصه

الصبغة الرومانسية[1] في شعره

شعر سيد قطب كان عاطفيّاً وجدانيّاً رومانسيّاً، كما يقول «حسن حنفي» في مقدمة ديوان الشاعر (قطب، ٢٠٠٨، ص٦). ويرجع هذا إلى اتصال سيد قطب بالعقّاد؛ إذ فرض عليه قراءة أشعاره وتحليلها واستيعاب آرائه النقدية والدفاع عنها؛ هذا يعني «أنّ سيد قطب قد تعرّف على كثير من الشعر الرومانسي من خلال قراءته لشعر العقّاد، وأيضاً من خلال اطّلاعه على الشعر الذي كان يترجمه العقاد عن شعراء الرومانسية الأجانب» (حسين، ١٩٩٣، ص١٠٨).

أعجب سيد قطب بالآداب الشرقيّة لاسيما «حافظ الشيرازي»؛ هذه النزعة إلى الشرق والحياة الشرقية كانت سبباً آخر في تكوين الشعور الرومانسي عند سيد قطب؛ لأنّ الرومانسيين نشأوا في عصر التنوير الذي كان العقل فيه مسيطراً عليه، فانزعجوا من صولة العقل الجامحة وأرادوا أن يلطّفوا أرواحهم بشيء لا صلة له بالعقل. وهكذا صار كثير من الأدباء الرومانسيين ومنهم سيد قطب، مشتاقين إلى الآداب الشرقيّة وحتّى نرى سيد قطب، يستلهم في بعض مضامينه الغزلية من الحافظ الشيرازي وغزله.

لقد اقترنت النزعة الرومانسية عند سيد قطب بميزات، تتمثّل فيما يلي:

أ) صارت القصيدة عنده تجربة شعورية، قادرة على مخاطبة مشاعر الآخرين، وتحريكها وإثارتها.

ب) جعل الشاعر أجزاء القصيدة ترتبط موضوعاً واحداً، تتحرّك فيه نحو غاية محدّدة، وهذا ما حقّق لها وحدتها الفنيّة. ج: اعتماده على الخيال إلى حدّ بعيد في بناء القصيدة ممّا جعلها بناءً تصويريّاً، وهذا ما جعل القصيدة عنده لها مذاقاً خاصاً وجديداً.

فمثلاً إنّ الاغتراب عن الوطن، والبعد عن الأهل والديار وذوي القربى، وفراق الأحبّة، يؤجّج العواطف ويلهب شعور المغترب الذي طوّحت به أيدي النوى، وهو يحسّ بالوحدة، وألم الفراق وعذابات البين، فلا يجد بدّاً من اللجوء إلى ذكرياته السالفة، يجد فيها الأنس والترويح ويلتمس عندها الطمأنينة والسلوى وهو يقاسي آلام الغربة وجراحاتها؛ ويلتمس بلهفة شديدة من صاحبَيه أن يستعيدا له ذكريات الماضي وأمانيه العذبة، ويتحدّثا له من أيام طربه التي لا يعتني فيها بصروف الدهر وحدثانه، ويصفا له أيضاً ليالي قضاها في أنس ومرحٍ ولهو

1. Romanius

Archive of SID

www.SID.ir

ولعب، فكأنّه يحلم وليس بحالم بل كلّ ما وجده من لذّة وتسلية كان حقيقة تجري على أرض الواقع بحيث يلمسها بكلّ جسده وروحه ثمّ ينتقل الشاعر إلى رياض الوطن الخلابة وحدائقه الغنّاءة التي تشدو فيها الطيور بألحانها الشجيّة وتفوح فيها الأزهار بروائحها الشذيّة، ثمّ يريد الشاعر من خليلَيه أن يجدّدا له ذكر ما طوته يد النسيان. يعيش الشاعر عند تذكر الماضي حالة شعوريّة مشحونة بالحنين والاغتراب ويعتبر هذا الشعور الاغترابي أفضل بديلٍ للأيّام التي خلت، وذكرياتها التي مضت؛ ولذلك يتلهّف على الماضي بحرارة ويؤجّج في نفسه الشوق إليه والرغبة فيه، فيقول في قصيدته «جولة في أعماق الماضي»:

حَدِّثَانِـــي بِمَـــا مَضَـــى حَـــدِّثَانِي ... وَأَعِيـــدَا إِلَـــيَّ عَهْـــدَ الأَمَانِـــي
وَاذْكـــرَا لِـــي زَمَـــانَ عِشْـــتُ طَرُوبـــاً ... لَـــا أُبَالِـــي بِحَادِثَـــاتِ الزَّمَـــانِ
وَصِفَـــا لِـــي لَيَالِيـــاً قَـــدْ تَقَضَّـــتْ ... كُنْـــتُ فِيهَـــا كَالحَـــالِمِ الوَسْنَـــانِ
صَـــوِّرَا لِـــي الرِّيَـــاضَ وَالزَّهْـــرَ وَالـــوَرْ ... دَ وَلَحْـــنَ الطُّيُـــورِ عَـــذْبِ الأَغَـــانِي
وَأَعِيـــدَا لِمَسْـــمَعِي ذِكرَيَـــاتٍ ... لَـــا تَصَـــدَّى لَهَـــا يَـــدُ النِّسْيَـــانِ
وَاسْـــمَحَا لِـــي بِزَفْـــرَةٍ وَحَنِيـــنٍ ... لَـــيْسَ لِـــي سَـــلْوَةٌ سِـــوَى التَّحْنَـــانِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٧٤)

يُذكر أنّ الخطاب إلى اثنين في هذه الأبيات واستعمال لفظة المثنى في كل الأفعال الواردة فيها، كان أسلوباً تقليديّاً في الشعر الجاهلي؛ إذ نرى امرؤ القيس يبدأ معلّقته الشهيرة بهذا الأسلوب.[١]

نرى في شعر سيد قطب الشوق للوطن الذي كان من أهمّ الملامح الشعرية عند الرومانسيين؛ إذ هو يتلهّف ويحنّ إلى بلده مصر ورُباه وثراه وصباه، ثمّ يتطرّق حنين الشاعر إلى اللّيالي التي قضاها مع رفاقه، فيبدو الشاعر في هذه الأبيات متعطّشاً لزيارة بلده وذكرياته الجميلة التي عاشها في مصر منطلقاً في وهادها وهضابها ومتقلّباً بين وديانها وجبالها؛ ثمّ يتمنّى الشاعر لو ضمّ حفنة من تراب بلده وملأ كيانه من ريحه ويقضي ليلة واحدة في وطنه مع خلّانه منهمكاً في الملاهي والملاذ على غرار أيّامه الماضية. والأمل الوحيد الذي يعيشه الشاعر بكلّ لهفة وظمأ هو أن يزور وطنه مرّة أخرى، وفي استخدام الشاعر أسلوب الاستفهام للتعبير عن هذا الأمل دلالة واضحة على شدّة حنينه وشغفه لرؤية الوطن، ذلك لأنّ استفهام الشاعر عن إمكانيّة تحقّق آماله وأمانيه يعتبر لدى البلاغيين محاولة تعبيريّة جادّة للإفصاح عن حبّه الجمّ ورغبته الملحّة في بلوغ

---

١. أعني هذا البيت: قفـا نبـك من ذكـرى حبيب ومنـزل ... بسقـط النـوى بيـن الدخـول فحومـل

Archive of SID

www.SID.ir

أمنياته ومآربه، ولم يتوان الشاعر جهداً في توظيف الأساليب البيانيّة المؤثّرة للتعبير عن أفكاره وآماله بما فيها أسلوب الاستفهام والتكرار والتمنّي والتعجّب وما شابه ذلك من الأساليب البيانيّة التي دأب كبار الشعراء على استخدامها في أشعارهم:

فِـــي الـــنَّفْسِ يَـــا مِصْـــرُ شَـــوْقٌ لِـــــخَطْرَةٍ فِـــــي رُبَـــــاك
لِـــــضَمَّةٍ مِـــــنْ ثَـــــراك لِنَفْحَـــــةٍ مِـــــنْ هَـــــواك
لِلَيْـــــلَةٍ فِيـــــك أُخْـــــرَى مَـــــعَ الرِّفَـــــاقِ هُنَـــــاك
ظَمْـــــآنُ تَهْتَـــــفُ رُوحِـــــي مَتَـــــى تَـــــرَانِي أراك؟

(قطب، ١٩٩٢، ص٩٩)

الشاعر يرسل سلامه وتحيّته لبلدٍ اعتبره مهداً للرجاء ومهبطاً لأحلامه. فسيد قطب بلّغ تحيّةً خاصّة للريف دون المدينة لما يحتوي الريف من ذكريات وأحاسيس احتلّت مكانة مرموقة في قلب الشاعر. يخاطب سيد قطب في الأبيات التالية الريف وكأنّه إنسان يسمع كلامه ويتجاوب مع مشاعره الحزينة فيحييه أجمل تحية. أثار الريف في نفس الشاعر الشعور بالخلود وسرمديّة، وهذا الشعور مازال يجري في عروقه وشرايينه جريان الدمّ. ليس الريف في نظر الشاعر مجرّد بيئة نشأ فيها وترعرع بل إنّه مأوى آماله ومغنى أحلامه ومكمن أسراره. لقد كبُر فيه الشاعر بطموحاته وتطلّعاته، فكلّ عنصر من عناصر الريف يذكره آمالاً اختلطت بلحمه ودمه. فكلّما استرجع الشاعر ذكرياته الصبيانية تبدّت في مخيّلته صورة الريف بمناظره الجميلة ومشاهده الأخّاذة، فامتزج في ذهن الشاعر صورة الريف مع أحلامه وأوهامه امتزاجاً حقيقيّاً:

مَهْـــدَ الرِّجَـــاءِ وَمَهْبَـــطَ الأَحْلَـــامِ وَطَنِـــي عَلَيْـــك تَحِيَّتِـــي وَسَلَامِـــي
يَـــا رِيـــفُ فِيـــك مِـــنَ الخُـــلُودِ أَثَـــارَةٌ تَنْسَـــابُ فِـــي خَلَـــدِي وَفِـــي أَوْهَـــامِي
وَتَـــرِدُّ إِحْسَاسِـــي إِلَيْـــك إِذَا خَلَـــتْ نَفْسِـــي إِلَـــى الآمَـــالِ وَالآلَـــامِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٨٥)

كان الرومانسيون منعزلين عن المجتمع والشاعر الرومانسي يريد أن يغترب ويتخلّص من المعاناة التي يفرضها عليه المجتمع. وفي الواقع كلّ هذه المضامين محاولة جادّة للتخلص من المجتمع والاغتراب منه. ولهذا الاغتراب تظاهرات روحيّة مختلفة لدى الشاعر فتارة نراه يحزن وينعزل عن المجتمع، وتارة يتظاهر بالمرض ويتمنّى الموت وربّما تكون هذه الأحوال التي تطرأ على نفسيّة الشاعر تجليّات رومانسيّة عن حالة الاغتراب التي يعيشها الشاعر؛ كما نجد الحالة نفسها لدى سيد قطب في الأبيات التالية التي يعبّر فيها عن غربته الروحية في أجمل تعبيرٍ:

Archive of SID

www.SID.ir

غَـــرِيبٌ أجَـــلْ أنـــا فِـــي غُرْبَـــةٍ ... وَإنْ حَـفَّ بِـي الصَّـحْبُ وَالأقْرَبُـونْ
غَـــرِيبٌ بِـــنَفْسِي وَمَـــا تَنْطَـــوِي ... عَـــلَيْهِ حَـــنَايَا فـــؤَادِي الحَنُـــونْ
غَـــرِيبٌ وَإنْ كـــانَ لَمَّـــا يَـــزَلْ ... بِبَعْـــضِ القُلُـــوبِ لِقَـــلْبِي حَنِيـــنْ
غَرِيـــبٌ فَـــوَا حَاجَـــتِي لِلمُـــعِين ... وَوَا لَهْـــفَ نَفْـــسِيَ لِلْمُـــخلِصِينْ

(قطب، ١٩٩٢، ص٦٣)

إنّ التكرار هنا في كلمة «غريب» أربع مرّاتٍ في كلّ بيت ينقّب عن طبقات المعنى ويقوم بدور «التعويض» عن تلك الحالة الشعورية المسيطرة على الشاعر، ليصل إلى العمق المطلوب وهو التعبير عن اغترابه؛ «إنّ الغربة التي يعيشها سيد، ليست غربةً عاديّة يعيشها أيّ إنسان غريب يسكن خارج وطنه بعيداً عن أحبابه وأقاربه؛ إذ أنّ سيد قطب كما صرّح في هذه الأبيات يُقيم وسط أصحابه وأقرانه ويتمتّع برعايتهم وعطفهم وحنانهم. إنّما يكون هذا الاغتراب الذي بداخله ناجماً عن شعوره بالوحدة والانفراد في عالم الكون، فهو غربة فلسفيّة إن جاز التعبير» (أميري ونعمتي، ٢٠١٢، ص١٢٦). من أجل ذلك نرى أنّ سيد قطب ينادي وبكلّ وجد وانفعال مَن يُعينه ويناصره على حمل هذا الشعور الاغترابي لعلّه يخفّف من وطأته التي تكاد تزول منها الجبال.

يؤكد سيد قطب على هذه الغربة الروحية ويعتبره أشدّ وأقوى من الغربة الجسميّة؛ إنّه يتخيّل نفسه منفرداً في وادٍ غريب لا صديق فيه ولا أنيس وهو محاطٌ بالأحزان والأشجان، حيث يقول:

وَحْـــدَةُ الأرْوَاحِ أنْـــكى الوَحَـــداتِ ... وَحْـــدَةَ الأجْـــسَامِ تُـــنْسَى وتَهُـــونْ
أيُّ بُؤْسِـــي تَسْتَحِـــثُّ الذِّكـــرياتِ ... كـانْفِرَادِ الـرُّوحِ فِـي وَادِي الشُّـجُونْ
إنَّ رُوحِـي قَـدْ تَنَاسَـتْ «خُـذ وَهَـات» ... وَانـزَوَتْ فِـي عَـالَمِ جَـمِّ السُّـكونْ

(قطب، ١٩٩٢، ص٣٩)

الذوبان في الطبيعة والتحدّث معها، والحبّ والتغزّل، والسياحة في عالم الخيال، والثورة على المجتمع وأفكاره، والإشادة بالحرية، والإحساس بالألم والحزن، كانت من أهمّ الملامح الرومانسية في شعر سيد قطب. في أكثر هذه الملامح نرى سيطرة القوى الروحية عند الشاعر سيطرةً تذهب بأفكاره ومشاعره إلى متاهات الخيال الأرحب.

توظيف الكلمات القرآنية في الشعر

يعدّ استخدام الكلمات القرآنية من أبرز التقنيات الفنية التي عني بها سيد قطب في شعره واحتفى بها بوصفها لوناً من الأساليب البيانيّة التي تمنح النصّ ثراءً وغنى؛ إذ إنّ شاعرنا وهو صاحب تفسير «في ظلال القرآن» كان متأثّراً بالتعاليم الإسلاميّة والقرآنية، فمن

Archive of SID

www.SID.ir

الطبيعي أن ينعكس ذلك على شعره، لذلك نجده قد اقتبس في شعره من بعض الآيات، كما استخدم كثيراً من مفردات القرآن؛ فخذْ نماذج من هذا في شعره:

قَـدْ اخْتَارَنَـا اللهُ فِـي دَعْوَتِـه ... وَإِنَّـا سَـنَمْضِي عَلَـى سُـنَّتِه
فَمِنَّـا الَّـذِينَ قَضَـوْا نَحْـبَهُمْ ... وَمِنَّـا الحَـفِيظُ عَلَـى ذِمَّـتِه

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٩٣)

استخدام الآية: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلا**﴾ (الأحزاب/٢٣).

وَتَقَالِيـدٌ وَأَسْـرَى يَعْبُـدُون ... هَـذِهِ الأَصْـنَامَ مَغْلُـولِي الفِكـرْ
وَإِذَا ثُـرْتُ عَلَيْهَـا يَسْخَطُـون ... وَيَقُولُـونَ تَمَـادَى وَكَفَـرْ!

(قطب، ١٩٩٢، ص٤٠)

المصراع الأخير من البيت الثاني كان صدى لغويّاً من الآية: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ۞ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ**﴾ (الغاشية/٢٣).

أحَيَـاةٌ هِـي أمْ نَـارُ الجَـحِيمْ ... بِلَظَاهَـا الهَائِـجِ المُسْتَعِـرِ؟
لَـا. فَفِـي نَفْسِـي مِـنَ الشَّـجْوِ الأَلِـيمْ ... مِـن حَيَـاتِي فَـوْقَ مَـا فِـي سَـقَرِ!

(قطب، ١٩٩٢، ص٤٢)

كلمات «لظى» و«سقر» كانتا من المفردات القرآنيّة: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**﴾ (القمر/٤٨)، ﴿**فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى**﴾ (الليل/١٤)، ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ۞ نَزَّاعَةً لِلشَّوى**﴾ (المعارج/ ١٥-١٦).

آهْ. لَـا شَـكوَى وَلَـا بَـثَّ شَـجَنْ ... لَـا أرِيـدُ الضَّـعْفَ. كَلَّـا. لَـا أرِيـدْ
سَـوْفَ لَـا يَظْهَـرُ مِنِّـي مَـا كمُـنْ ... فَلَيَشُـدَّ الخَطْـبُ إِنِّـي لَشَـدِيدْ

(قطب، ١٩٩٢، ص٤٢)

كلمة «لَشَدِيدْ» كانت اقتباساً من القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد**﴾ (البروج/١٢)، ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيد**﴾ (العاديات/٨).

وَفِـي اللَّيْـلِ إِذْ يَغْشَـى، وَكَانَـتْ إِذَا غَفَـا ... تَـيَقَّظَ فِيـهَا كـلُّ غَـافٍ وَسَـادِرِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٦٠)

Archive of SID

www.SID.ir

إذَا اللَّيْـلُ جَـنَّ تَجِيـشُ الفِكـرْ وَيـؤَرِّقُ جَفْنِـي مَـرُّ الذِّكـرْ

(قطب، ١٩٩٢، ص٧٣)

في هذين البيتين نجد اقتباساً من بعض صفات الليل والتي ذكرها القرآن الكريم: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشَى**﴾ (الليل/١)، ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً**﴾ (الأنعام/٧٦).

مَـاذَا تُخَلِّـفُ يَـوْمَ تَـذْهَبُ يَـا غَـدِي؟ لَـا شَـيْءَ بَعْـدَ الفَقْـدِ لِلْمُتَفَقِّـدِ

سَـتُخَلِّفُ الأيَّـامَ قَاعَـاً صَفْصَـفاً تَـذْرُو الرِّيَـاحُ بِهَـا غُبَـارَ الفَدْفَـدِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٦٢)

الاقتباس من الآية: ﴿**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً ۞ فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً**﴾ (طه/١٠٥-١٠٦)؛ ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ**﴾ (الكهف/٤٥).

وَلَيَالِيـــهِ شَاجِيَـــاتٌ حَيَـــارَى يَتَرَامَيْـــنَ حَوْلَـــهُ مِـــنْ لُغُـــوبِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٩٤)

جملة «من لغوب» كانت مقتبساً من الآية: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ**﴾ (ق/٣٨).

هَـل كَـانَ إلَّـا فِـي العَظَـائمِ مَوْئِلَـاً فِـي يَـوْمٍ تَشْـخَصُ عِنْـدَهُ الأبْصَـارُ

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٦٤)

الاقتباس من: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ**﴾ (إبراهيم/٤٢).

فَلْـتَعُنْ لِلـذِّكرَى الجبَـاهُ وَتَـنْحَنِ الـ ـــهَامَاتُ وَلْتَتَخَشَّـــعُ الأبْصَـــارُ

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٦٥)

الاقتباس من الآية: ﴿**خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾ (القلم/٤٣).

اللوحات التصويريّة في الشعر

يُعدّ التصوير الأداة البارزة التي اعتمد عليها الشاعر في التعبير عن أبعاد وجوانب تجربته الشعريّة، ولذلك قال في المقدّمة التي كتبها لديوانه: «يتبين للناقد، أنّ الشاعر في هذا الديوان؛ يقف موقف المصوّر في كثير من القصائد؛ حتّى لا تكاد تخلو قصيدة من تصوير... فهو متحف صُور، قبل أن يكون قصائد شعر» (قطب، ١٩٩٢، ص٣٤). ذلك أنّ الشاعر بواسطة الصورة

Archive of SID

www.SID.ir

يشكل أحاسيسه وأفكاره وخواطره في شكل فنيّ محسوس، وبواسطتها يصوّر رؤيته الخاصّة للوجود والعلاقات الخفيّة بين عناصره.

إنّ للحركة مكانة متميّزة ومتفوّقة في الصورة الشعريّة عند سيد قطب، حيث يمنح الجمادات شخصيةً إنسانية. هناك صور مختلفة من التجسيم في شعر سيد قطب يمكن أن نقسّمها إلى التجسيم العقلي والذهني. فالتجسيم العقلي هو تجسيم المعاني الذهنية التي تُدرك بالعقل، بحيث تبدو أجساماً تُدرك بالحسّ؛ فمثلاً يجسّم الشاعر الخطيئة والذنب الذي كان أمراً عقليّاً، ويجعله ذا حركة وشعور، وهو في قصيدة «الخطيئة»:

مِـنْ خِلَـالِ الظَّلْمَـاءِ فِي بَهْمَـةِ اللَّيْـ ـــلِ تَمَشَّـتْ كالحَيَّـةِ الرَّقْـطَـاءِ
تُوقِـظُ الجِسْـمَ وَالغَرِيـزَةَ بِالهَمْـ ـــسِ وَتَطْغَى عَلَى الحِجَا وَالذَّكَـاءِ
وَهْـيَ مِـنْ خَشْيَـةِ الضَّـمِيرِ تَـوَارَى فِي زَوَايَـا المُيُـولِ وَالأَهْـوَاءِ

(قطب، ١٩٩٢، ص١٣٤)

لقد منح سيد قطب الخطيئة الشخصيةَ والحياة فإذا بها تنساب انسياب حيّة رقطاء في آناء الليل وجنح الظلام تجعل الغشاوة على العقول والفطن وتتناجى مع النفوس والغرائز وتوسوس فيها بلا هوادة حتّى توقظها من نومها وتدفعها نحو ارتكاب الجرائم والآثام. إنّ الخطيئة جبانة لا تجرؤ على مقابلة العقل نهاراً فتراها تتغلغل وتتسلّل إلى دواخل النفوس وزوايا القلوب خوفاً من سطوة العقل عليها وطردها من مملكته.

قام سيد قطب أحياناً كثيرة بتصوير الحالات النفسيّة من الحزن واليأس والإحباط تصويراً حسيّاً موحياً في محاولة شعريّة لتقريب هواجسه وأحاسيسه إلى نفس المخاطب؛ فالشاعر في البيتين التاليين مثّل نفسه إنساناً ضالّاً وتائهاً في مجاهل فلاة موحشة وسط ظلام دامس والوحوش تكتنفه من كلّ جانب، بينما هو يتخبّط في أهواله وأحزانه يلمح في الأفق ضوءاً خافتاً يعيد إلى الشاعر بصيص الأمل:

لَـاحَ لي مِـنْ جَانِـبِ الأُفُـقِ شُـعَاعٌ بَيْنَمَـا أَخْـبِطُ فِي دَاجِـي الظَّلَـامِ
فِي صَحَارِي اليَـأْسِ أَسْـرِي فِي ارْتِيَـاعِ حَيْـثُ تَبْـدُو مُوحِشَـاتٍ كالرِّجَـامِ

(قطب، ١٩٩٢، ص١١٣)

تصوير مشاهد الطبيعة كان أفقاً آخر من آفاق التصوير الشعري لدى سيد قطب؛ ومن أمثلته تصوير الدنيا كطفلة هادئة مستغرقة في النوم، والليل يضمّها بذراع حانية، كأنّه أمّ حنون؛ هذا التصوير الجميل الذي رسم الشاعر فيه بريشته منظراً غاية في الجمال والدقّة:

Archive of SID

www.SID.ir

كانَـتِ الـدُّنْيَا يُغَشِّـيهَا السُّـكونْ وَظَـلامُ اللَّيْـلِ وَالنَّـوْمُ العَمِيـقْ
طِفْلَـةٌ قَـدْ ضَـمَّهَا اللَّيْـلُ الحَنُـونْ ضَـمَّةَ الرَّحْمَـةِ كـالأمِّ الشَّـفُوقْ!

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٣٤)

وبينما الدنيا نائمة كطفلة رقيقة، إذا بالصبح يظهر في هيئة جميلة وقورة، فتستيقظ الطفلة التي أنفاسها هي نسمات الجوّ الرقيقة النديّة، فيقول:

وَتَـرَاءى الصُّـبْحُ في سَـمتٍ بَـدِيعٍ فَـإذَا الطِّفْلَـةُ تَصْـحُو مِـنْ سُـبَاتْ
تُرْسِـلُ الأنْفَـاسَ في رِفْـقٍ وَدِيـعٍ وَإذا الأنْفَـاسُ تِلْـك النَّسَـمَاتْ

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٣٤)

الاهتمام بالقضايا الوطنيّة والإسلاميّة والحثّ على المقاومة

يؤيّد سيد قطب الثورة الفلسطينيّة ويدعو رجالها إلى مواصلة الكفاح وحمل السلاح؛ لأنّه هو الطريق الوحيد إلى التحرير والنصر. الانتصار في منظور الشاعر لا يتأتّى إلّا عن طريق التضحية وبذل النفس والنفيس. فالدّم المراق في سبيل الكفاح والذود عن الذمار من شأنه أن يُعظّم الأمم ويُعلي شأنها. يؤكد سيد قطب على أنّ الاستقلال الحقيقي هو من ثمار الجهاد ولا يجنيها إلّا المجاهدون المستميتون الذين لا يهابون الموت ولا الأعداء، فيقول:

عَـهْدٌ عَـلَى الأيـَّامِ ألـَّا تُهْزَمُـوا فَالنَّصْـرُ يَنْبُـتُ حَـيْثُ يُهْـرَاقُ الـدَّمُ
فِـي حَيْـثُ تَـعْتَبِطُ الدِّمَـاءُ فَأيْقِـنُوا أنْ سَـوْفَ تَحْيَـوْا بِالدِّمَـاءِ وَتَعظُـمُوا
تَـبْغُونَ الاسْتِقْـلَالَ؟ تلْـك طَرِيقُـهُ! وَلَقَـدْ أخَذْتُـمْ بِالطَّرِيـقِ فَيَـمِّمُوا
وَهُـوَ الجِـهَادُ حَمِيـَّةٌ جَشَّامَـةٌ مَـا إنْ تَـخَافُ مِـنَ الـرَّدَى أوْ تَحْجُـمُ

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٧٩)

ثمّ يحثّ الشرق كلّه على مناصرة الثورة الفلسطينيّة، وينوّه بانتفاضته العاتية التي ستقضي على كلّ ألوان الاستعمار فيقول:

وَطَـنٌ يُقَسَّـمُ لِلـدَّخِيلِ هَـدِيَّةً فَعَلَـامَ يَحجُـمُ بَـعْدَ هَـذَا مُحْجِـمُ؟
الشَّـرْقُ يَـا لَلشَّـرْقِ تِلْـك دِمَـاؤُهُ وَالغَـرْبُ يَـا لَلْغَـرْبِ يُضْـرِيهِ الـدَّمُ
الشَّـرْقُ وَيْـحَ الشَّـرْقِ كَيْـفَ تَقَحَّمُـوا حُرُمَاتِـهِ الكبْـرَى وَكَيْـفَ تَهَجَّمُـوا
سَـنَةٌ وَمَـرَّتْ وَالنِّيَـامُ تَيَقَّظُـوا فَلْيَعْلَمُـوا مَـنْ نَحْـنُ أوْ لَـا يَعْلَمُـوا!
اليَـوْمَ فَلْيَلِغُـوا الدِّمَـاءَ وَفِـي غَـدٍ فَلْـيَنْدَمُوا عَـنْهَا وَلَـاتَ المَنْـدَمُ

(قطب، ١٩٩٢، صص٢٧٩-٢٨٠)

Archive of SID

www.SID.ir

استخدم الشاعر في الأبيات المذكورة أسلوب الاستفهام في البيت الأوّل ويجعله آلية صالحة للتعبير عن سخطه واشمئزازه من الذين فضّلوا الإحجام والاستسلام على العزّ والكرامة. لقد أهوى الشاعر بسياط اللوم والغضب على المحجمين والمساومين الذين قدّموا وطنهم للغاصبين تُحفةً، ثمّ يحذّر الشرق العربي بصرخاته النارية من الويلات والمصائب التي أحدقت به من كل حدب وصوب، ويتوعّدهم بالمستقبل العاجل الذي يستيقظ فيه الشباب فسرعان ما يُحاسبون الخونة والمتهاونين الذين باعوا الوطن وضيّعوا دماء المجاهدين حساباً شديداً، وفي ذلك اليوم يعضّ الظالمون أيديهم ولكن لات ساعة مندم!

يرثي سيد قطب «العُبيّد» في قصيدة «البطل»، وهو شابّ سوداني اشترك في تأليف جمعيّة اللواء الأبيض[١] في السودان، وقام يناضل في بطولة ورجولةٍ فذّة الاستعمار البريطاني، إلى أن أودعه المستعمرون السجن وراحوا يعذّبونه في وحشيّة قاسية حتّى مات وهو في سجنه. في هذه القصيدة ينوّه الشاعر بشجاعة العبيّد في مواجهة الموت ويشير إلى بعض ألوان التعذيب الذي ذاقها هذا الشابّ السوداني، ثمّ يدعو شباب الشرق إلى الاتّحاد والقوّة، وإلى أن يضحّوا بأنفسهم فداءً لوطنهم، وختاماً يلوم شباب وطنه مصر لانغماسهم في روتينيّات الحياة وتَلهّيهم عن رسالتهم الجهاديّة، ناصحاً إيّاهم بمواكبة الأبطال وأباة الضيم الذين يرفضون حياة الذلّ والخذلان:

يَـا شَـبَابَ النِّيـلِ مَـاذَا؟ وَيْحَكُـمْ! أَفَـأَنْتُمْ حَيْـثُ يُحْيِـيكمْ دُعَـاءْ؟
يَـا شَـبَاباً نَكَـبَ النِّيـلُ بِـهِ فِي الأَمَـانِي وَالتَّعِلَّـاتِ الوِضَـاءْ
يَـا شَـبَابَ النِّيـلِ هَـلْ أَبْصَـرْتُمُو فِي فَتَـى السُّـودَانِ كَيْـفَ الشُّـهَدَاءْ؟
يَـا شَـبَابَ النِّيـلِ هَـذَا مَثَـلٌ لِجَلَـالِ المَـوْتِ فِي ظِـلِّ الإِبَـاءْ

(قطب، ١٩٩٢، صص٢٦٢- ٢٦٣)

يكرّر سيد قطب لفظة «النيل» أربع مرّات في هذه الأبيات، لأنّ النيل عنده يخرج من دائرة الحس والمادة إلى دائرة المعنى، فهو رمز لقوّة الإرادة ومجد الوطن وكان باعثا لمعاني العزة والكرامة والحرية والعظمة، ورفض الخضوع على مرّ العصور. وفي عزو الشباب إلى النيل محاولة ذكيّة لإنهاض الروح الجهاديّة لدى الشباب وإثارة الغيرة والحميّة فيهم آخذاً بنظر

١. حمعيّة وطنيّة ألّفها الشباب الوطني السوداني عام ١٩٢٤ على إثر فصل السودان عن مصر، غايتها مقاومة الاستعمار البريطاني والانضمام إلى مصر في الحركة الوطنيّة وتحقيق الجلاء عن وادي النيل (راجع: الرافعي، ١٩٤٧، ج١، صص١٧١-١٧٢).

Archive of SID

www.SID.ir

الاعتبار أنّ لفظة النيل تبعث في نفسيّة الشباب معاني سامية كالوطن والجهاد والرفض والإباء والكرامة، زد على ذلك أنّ لأسلوب التكرار الذي وظّفه في شعره أثراً بيّناً لتعزيز مكانة النيل الرمزيّة في أذهان شباب الوطن.

وقعت حادثة مأساويّة في مركز «البداري» في مصر، والتي يقول عنها سيد قطب: «ليس في مصر من لا يذكر هذه المأساة الوحشيّة التي مثّلها مأمور البداري المقتول مع أهالي البداري عامّة؛ وسجين البداري خاصّة...» (قطب، ١٩٩٢، ص٢٨١). يتذكر سيد قطب في إحدى قصائده الوطنيّة هذه الواقعة فيندّد بالظلم والقمع الذي يُمارس بحقّ الأبرياء في ظلّ الدفاع عن حقوق البشر. خاطب الشاعر الأشخاص والمؤسّسات التي تدافع عن حقوق الحيوانات بلهجة لا تخلو من الغرابة والدهشة، فيقول: ما بالكم تتحمّسون على حقوق القطط والكلاب، ولا تكترثون بالأناس الذين يتألّمون ويرزحون تحت سياط القسوة والتعذيب؟! ثمّ يُضيف قائلاً: ما بال مصر أنّ كلابها تعيش بأمانٍ ورفاهيّة بينما شعبها يقتل ويضطهد؟! لماذا في مصر يكافأ المجرم بدل أن يُحاسب ويُعاقب على جريمته؟! ماذا جرى على مصر حيث حلّت المساوئ والفحشاء محلّ القيم والأخلاق؟! وماذا خطب مصر أنّ الرذائل التي ملأت أرجاءها تقضي على الكرامة وتسفك دماء الكرماء والصالحين؟! ولا يخفى أنّ تكرار لفظة «مصر» في هذه الأبيات يحدث في أذن السامع إيقاعاً يشبه عويل الثكلى التي ترثي ولدها المفجوع، فيقول الشاعر:

يَـا أيُّهَـا الرُّفَقَـاءُ بِـالحَيْوَانِ لَـا ... تَـنْسَوْا أُنَاسيًّـاً تَئِـنُّ وَتَـأْلَمُ
فِـي مِصْـرَ قَـدْ تَلْقَـى الكلَـابُ رِعَـايَةً ... بَـيْنَا يُحَـقَّرُ شَـعْبُهَا وَيُحَطَّـمُ!
فِـي مِصْـرَ لَـا يَلْقَـى المُـسِيءُ جَـزَاءَهُ ... لَـا بَـلْ يُكَافَـأُ دُونَـهُ وَيُكَـرَّمُ
فِي مِصْرَ مَا لَا يَحْفَظُ التَّارِيخُ مِنْ ... فُحْـشٍ يَعِـجُّ بِهَـا وَفُـحْشٍ يُكتَـمُ
فِي مِصْرَ! لَو فِي مِصْرَ بَعْضُ كرامَةٍ ... غَضِبَتْ وَفَـارَ عَلَـى جَوَانِبِهَـا الـدَّمُ!

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٨٢)

في قصيدة «صوت الوطنيّة»، يحثّ الشاعر مصر على الثورة والانتفاض، لأنّها ما كانت يوماً ذليلة مهينة، ولأنّه لم يعد هناك وقتٌ للكسل أو البكاء، فالدنيا كلّها تتحرّك وتثور، والنيل صار ماؤه نقماً ساخطاً ينتظر مَن يقذف فيه من الأعداء؛ فيقول بأسلوب قويّ ومؤثّر نسمع فيه جلجلة الرعود القاصفة وولولة الرياح الهوج وزمجرة العواصف السود؛ يتوجّه الشاعر إلى مصر (وهو يقصد أبنائها) سائلاً إيّاها: ألم يأن لها أن تفور بعد كلّ هذه المصائب والصروف التي مرّت بها؛ حيث

Archive of SID

www.SID.ir

انقلبت الأمور واضطربت الأحوال وسوّدت الأهوال آفاقَ البلاد كلّها، فالنيل الأزرق غضب وملّ هذا الصمت الجنائزي، لكنّ مصر ظلّت غارقة في لهوها ومرحها وعندما صاحت واستيقظت من نومها أخذت تبكي وتُعول على حالها المأساوي، ويتمنّى الشاعر لو تُترجم مصر هذا البكاء والعويل إلى إقدام وشجاعة وانتفاضة؛ لأنّ البكاء والعويل لا يجديان ولا طائل تحتهما، فهي إمّا أن تثور وتُحطّم القيود ويفوز بالحرية والكرامة العيش وإمّا أن تظلّ مقيّدة بالقيود مسلوبة الإرادة صاغرة:

ضَجَّتْ الدُّنْيَا فَمَاذَا تَرْتَقِبْ ... مِصْرُ مِنْ أهْوالِهَا حَتَّى تَثِبْ؟
ضَجَّتْ الدُّنْيَا مِنَ الهَوْلِ الَّذِي ... تَرَكَ الدُّنْيَا جَمِيعاً تَضْطَرِبْ
فَارَ مَاءُ النِّيلِ أوْ صَارَ إلَى ... حُمَمٍ أوْ نِقْمَةٍ مِنْهُ تُصَبْ
وأرَى مِصْرَ تُغَانِي سَكْرَةً ... وَإذَا تَصْحُو تَوَلَّتْ تَنْتَحِبْ؟
مِصْرُ يَا مِصْرُ وَمَا يُجْدِي البُكَا ... غَضْبَةٌ يَا مِصْرُ كاللَّيْثِ وَثَبْ
غَضْبَةٌ يَا مِصْرُ أوْ لَا فَادْرُجِي ... فِي قُيُودِ الذُّلِّ وَارضَيْ بِالحَرَبْ[1]

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٨٣)

سيطرة الحبّ العرفاني في شعره

تحدّث سيد قطب عن المرأة في الإطار العام الذي تحرّكت فيه فلسفة الشاعر في الحياة، فاعتبر المرأة السرَّ الذي فتح بينه وبين الحياة، والحبّ الذي تحدّث عنه هو الحبّ الطاهر العفيف، الخالد الذي يرتفع بالإنسان عن خطل الجسم إلى عالم النور والضياء. يلاحظ في شعر سيد قطب الغزلي بأنّ الحبّ عنده كان رمزاً موحياً دالّاً على المحبوب الحقيقي، وهو الله سبحانه وتعالى. إذ أنّ الشاعر يعتبر الحبّ جوهراً مكنوناً وقدسيّاً في هذا الكون، كان مأواه الحقيقي في السماء وفوق العرش، والمؤشّر الصادق الذي يدلّ على أنّ محبوب الشاعر هو الله سبحانه دون سواه أنّه أذاب وأفنى كلّ مكوّناته الإنسانيّة ومقوّماته البشريّة من الروح والنفس والفكر والجسد والخيال في الحبيب، فلا يتناسب هذا التعبير مع ما يوجد في منظومته الفكريّة إلّا إذا اعتبرنا الحبيب معبوداً أسلم له مَن في السموات ومن في الأرض، فيقول عن ذلك:

وَحَبِيبٌ قَدْ سَمَتْ رُوحِي إلَيْهِ ... وعَبَدتُ الطُّهْرَ فِيهِ والجَمَالْ
ووَقَفْتُ النَّفْسَ والفِكْرَ عَلَيْهِ ... والأمَانِيَّ وأطْيَافَ الخَيَالْ

(قطب، ١٩٩٢، ص٣٩)

وهذه النظرة إلى الحبّ تختلف عمّا يعنيه الآخرون من دُعاة الحبّ الإباحي، حيث إنّهم

١. الحَرَب: سلب الأموال وكلّ ما يُملك.

Archive of SID

www.SID.ir

يستغرقون في العشق الشهواني ولوازمه؛ بينما يرفض سيد قطب أن يكون حبّه الهوى والهوس الذي يُراودُ الشعراء والتي تتعلّق غالباً ما بالعشيقات البشريّة والحبّ الجسدي الماجن، فالعرائس التي يميل إليهنّ الشعراء الماجنون يتصرّفن في أغلب الأحوال تصرّف البغايا والمومسات، ولكن سيد قطب يتحدّث في أشعاره عن الحبّ الإلهي الذي يترفّع عن الدنايا والشهوات المُخزية:

إنْ ذَكَـرْتُ الحُـبَّ قُدْسِـيّاً نَقِيّـاً ... حَسَـبَوهُ مِـنْ خَيَـالِ الشُّعَـرَاءْ
إنَّـنِي أُدْرِكُـهُ رُوحَـاً خَفِيّـاً ... يَهْـبِطُ الأَرْضَ وَمَـأْوَاهُ السَّـمَاءْ
وَهُـمْ يَبْغُونَـهُ إِثْمـاً فَرِيّـاً ... يُرْتَـدَى فِي أَثْـوابِ البِغَـاءْ!

(قطب، ١٩٩٢، ص٤٣)

فهو ظلّ وفيّاً لهذا الحبّ السماوي إلى أن مات دونه شهيداً:

سَأَصُـونُ عَهْـدَ الحُـبِّ عَفّـاً طَـاهِراً ... حَتَّـى أَمُـوتَ بِـهِ شَـهِيداً مُغْرَمَـا

(قطب، ١٩٩٢، ص٤٥)

والمعشوقة التي يتودّد إليها سيد قطب خارجة من نطاق الأرض أو عالم الناسوت الذي يشاب فيه الحبّ بالشوائب الجسديّة بل معشوقة الشاعر يسمو شأنها وتعلو مكانتها وتفوق الأرض والسماء ومَن فيهما، وهي التي سمّاها سيد قطب رسولاً من رُسل الحياة التي تمثّل معجزة نبويّة:

وَمَـا أَنْـتِ إِلَّـا رَسُـولُ الحَيَـاةِ ... وَحُبُّـكِ مُعْجِـزَةٌ مِـنْ نَبِـيْ

(قطب، ١٩٩٢، ص١٧٤)

التأثّر بنغمات الحافظ الشيرازي الغزلية

إقبال الأدباء والنقاد المصريين لاسيّما سيد قطب على ديوان حافظ وغزليّاته[١] ينطلق من شوق دفين لديهم إلى تراث الشرق لخصلتهم الشرقيّة العميقة، ولسأمهم من كثرة ما طالعوه من ترجمات الأدب الأوربي التي لا تنسجم في كثير من نفحاتها مع روح الشرقيين. إنّ فكرة حافظ الشيرازي ورؤيته العرفانية تتّفق والنظرةَ الروحيّة لدى سيد قطب[٢]؛ إذ يصرّح بأنّ عنايته بدراسة أشعار الشرقيين، إنّما باعثها هو أن يروي نفسه من مناهل هي أقرب إلى الروح (نقلاً عن الندوي،

١. ترجم هذا الديوان في مصر على عنوان «أغاني شيراز» لإبراهيم أمين الشواربي وهو يضم منظومة ومنثورة لأشعار حافظ الشيرازي.

٢. وهذا التطلّع الروحي كان نقطة اختلاف سيد قطب مع أستاذه العقّاد؛ إذ يقول سيد قطب بأن العقّاد كان رجلاً فكرياً محضاً لا ينظر إلى مسألة ولا يبحث فيها إلا عن طريق الفكر والعقل (نقلاً عن الندوي، ٢٠٠١، ص١٠٩).

Archive of SID

www.SID.ir

٢٠٠١، ص١٠٩). يقول سيد قطب متحدّثا عن حافظ وغزله: «لقد أخلدتُ ـ مع حافظ ـ إلى الغناء العذب بروح صادقة، لا تكدّرها شوائب الحياة، ولا هموم العيش، ولا أحقاد الناس، ولا تفسدها كذلك غواشي القلق، ولا هموم الفكر، ولا الجدل الذهني العقيم» (قطب، ١٩٨٣، ص٦٨).

يرى سيد قطب أنّ أشعار حافظ ستعمل على تغذية الشعر العربي بالروح الغنائية بعدما غرق الشعر العربي الحديث في موجة فكريّة ويعتقد أنّ سبب طغيان هذه الموجة يعود إلى اهتمام الشعراء المعاصرين بمواكبة موجة الأسلوب اللفظي أو الإيقاعي التي اهتمّت بالمحسّنات البديعيّة الجوفاء والإيقاع الموسيقي الذي لا يتّسم بالحياة ولا بالجديّة (قطب، ١٩٩٢، ص٧٠). يشير سيد قطب إلى خصائص أشعار حافظ الشيرازي البارعة وميزاتها وما فيها من عطاء للعالم العربي، ويركز على النقاط التالية (انظر، قطب، ١٩٩٢، ص٧١ وبعدها):

- زيادة ثروة الأدب العربي، وإثارة ألوان جديدة من التفكير وفنون من الشعور الخصب.
- زيادة رصيد الغناء في الشعر العربي.
- استرواح عطر الشرق البعيد وبساطته ومرحه، وغيبيّته وتصوّفه.

هذا الاهتمام لشعر حافظ وغزله انعكس بوضوحٍ في غزليّات سيد قطب، نذكر نماذج منها في شعر سيد مع الإشارة بما شابهها في غزل حافظ الشيرازي في الهوامش:

- إنّ الحبّ سبب الغنى[١]:

وَأشْـعَرتِنِي مَعْنَـى الطَّلَاقَـةِ وَالرِّضَـا ... وَمَعْنَـى الغِنَـى عَـنْ كـلِّ آتٍ وَغَـابِرِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٩٢)

- الاستشهاد في سبيل الحبّ[٢]:

سَأصُـونُ عَهْـدَ الحُـبِّ عَفَّـاً طَـاهِراً ... حَتَّـى أمُـوتَ بِـهِ شَهِيـداً مُغْرَمَـا

(قطب، ١٩٩٢، ص٤٥)

- الحيرة من المعشوق[٣]:

مَـنْ أنْـتِ؟ مَـا أنْـتِ؟ إنِّـي حَـائرٌ قَلِـقٌ ... أأنْـتِ أُسْـطُورَةٌ فِـي سِـفْرِ أفَّـاك؟

(قطب، ١٩٩٢، ص٢١٧)

---

١. في غزل حافظ: چو ذرّه گرچه فقيرم ببين به دولت عشق ... گوشـه تـاج سلطنت می‌شکند گدای تـو

٢. في غزل حافظ: قتيل عشق تو شد حافظ غريب ولـی ... به خاک ما گذری کن که خون ماست حلال

٣. في غزل حافظ: عشـق تـو نهـال حيـرت آمـد ... وصـل تـو کمـال حيـرت آمـد

بـس غرقـه حـال وصـل کـآخر ... هـم بـر سـر حـال حيـرت آمـد

Archive of SID

www.SID.ir

- وجود المعشوق؛ سبب الخلق والحياة[١]:

هِـيَ أنْـتِ الَّـتي خُلِقْـتِ لِنَحْيَـا فِـي ظِلَـالٍ مِـنَ الوَفَـاءِ الرَّشِـيد؟

(قطب، ١٩٩٢، ص١٦٠)

وردت بعض الاصطلاحات العرفانيّة في غزل سيد قطب والتي نراها في غزل حافظ الشيرازي بعينها؛ نذكر نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر:

-لفظة «حجاب»[٢]:

فَبِـأيٍّ مُعْجِـزَةٍ كشَـفْتِ ضَـمَائِرِي وَجَلَـوْتِ كـلَّ مُحَجَّـبٍ مَسْـتُورِ؟

(قطب، ١٩٩٢، ص٩٣)

- اصطلاح «وجود، وعدم»[٣]:

أَلَسْـتِ الَّتِـي نَبَضْـتِ "بِـالوُجُود" فَشَـقَّ قُـوَى "العَـدَمِ" السَّـاخِرَه

(قطب، ١٩٩٢، ص١٧٥)

- اصطلاح «جمع، وتفرقة»[٤]:

هَكَـذَا الـدُّنْيَا اجْتِمَـاعٌ وافْتِـرَاقٌ وَهِـيَ آهَـاتٌ وَذِكْـرَى وَشَقَـاء!

(قطب، ١٩٩٢، ص١٥٤)

التأثّر بمدرسة العقّاد الشعرية

يعدّ العقّاد أستاذ جيل، ورأس مدرسة، تأثّر به كثير من الشعراء الذين عاصروه والذين جاءوا من بعده، ولكن نستطيع أن نقول بإن سيد قطب «هو أشبه تلاميذ العقّاد به» (عبدالسلام، ١٤١٦، ص١١٩)، وأكبر المُعجبين به (الجيوسي، ٢٠٠٧، ص٥٦٠). أعجب سيد بداية مسيرته الأدبية بمدرسة «العقّاد»، ويصف العقّادَ بأنه أفضل شاعر وأقوى أديب في مصر (البدوي، ١٩٩٢، ص٥٢). على هذا الأساس، نرى بوضوحٍ تأثير العقّاد على سيد قطب في شعره وأدبه. التشابه بين عناوين قصائد الشاعرين في أكثر من عشرين موضعاً (راجع: البدوي، ١٩٩٢، صص١٢٥-١٢٩) والكثير من موضوعات شعرهما ومعانيه، يدلّ على هذا التأثير والتأثّر بين

---

١. في غزل حافظ: سايه قد تو بر قالبم اى عيسى دم عكس روحى است كه بر عظم رميم افتادست

٢. في غزل حافظ: حجاب راه توئى حافظ از ميان برخيز خوشا كسى كه در اين راه بى‌حجاب رود

٣. في غزل حافظ: ره رو منزل عشقيم وز سر حد "عدم" تا به اقليم "وجود" اين همه راه آمده‌ايم

٤. في غزل حافظ: ز فكر تفرقه باز آى تا شوى مجموع به حكم آنكه چوشد اهرمن سروش آمد

Archive of SID

www.SID.ir

العقّاد وسيد قطب. فمثلاً رثاء الحيوان الذي كان أحد المضامين الشعرية لدى العقّاد، انعكس في شعر سيد قطب؛ إذ يرثي العقّاد كلبه «بيجو» متضمّناً عاطفة حارّة تفيض بالحزن والأسى على الكلب الفقيد، وتدلّ على المنزلة التي كان يتبوّؤها عند صاحبه، كما تدلّ على عظم مصابه عنده (راجع: العقّاد، ١٩٤٢، ص١٧٥). يرثي أيضاً سيد قطب في قصيدة «موت سوسو» هرّه الذي انطفأت فيه شعلة الحياة ويقول:

لَقَدْ هَمَدَتْ فِي الضُّلُوعِ الحَيَاةُ فَمَا يَرْجُفُ القَلْبُ أَوْ يَخْفُقُ
وَقَدْ غَابَ لَألاؤُهَا فِي العُيُونِ فَمَا تَرْمُقُ الكَوْنَ أَوْ تَبْرُقُ
وَقَدْ سَكَنَتْ نَأْمَةٌ فِي حَشَاه فَمَا عَادَ يَقْفِزُ أَوْ يَمْرُقُ

(قطب، ١٩٩٢، ص٢٦٨)

هذه المرثية كانت أقرب إلى التأمّل في حقائق الموت والحياة منها إلى الرثاء، إذ لا تظهر فيها عاطفة الشاعر نحو هذا الحيوان، ولا تحدّثنا عن شيء من صفاته وأحواله.

توظيف الشعر القصصي

الشعر القصصي هو الذي يعتمد في مادّته على ذكر وقائع وتصوير حوادث في ثوب قصّة تساق مقدّماتها، وتُحكى مناظرها وينطق أشخاصها. فالشاعر القصصي قد يطوف بحياته حادث من الحوادث تنفعل به نفسه وتتجاوب له مشاعره ويهتزّ إحساسه، فيعمد إلى تصوير هذا الحادث كما تَمثّلَ لديه في قصّة ينسج خيوطها ويرسم ألوانها ويطرز حواشيها (الخفاجي، ١٩٩٢، ص٩٠). فالقصيدة القصصيّة صارت نوعاً أدبيّاً متميّزاً، تحكي بأجمعها قصّة خياليّة أكثر منها واقعيّة؛ إذ من الطبيعي أن يعتمد الشاعر على عنصر الخيال وقد يبني من تجربة خياليّة عملاً فنيّاً كاملاً.

نرد في ديوان سيد قطب القصائد التي يحكي خلالها الشاعر قصّة خياليّة، يُبدي خلالها افكاره وآراءه تجاه الحياة والكون. فالقصيدة «السرّ أو الشاعر في وادي الموتى» كانت من أهمّ هذا النوع من الشعر. في البداية يقدّم سيد قطب على هذه القصيدة فيقول: «اعتاد الشاعر أن يتردّد كثيراً على وادي الموتى في أوقات مختلفة، أكثر ما تكون عند مغرب شمس، وقبل طلوعها!» (قطب، ١٩٩٢، ص١٢٤). ثمّ يذكر بأنّه منذ ستّة أعوام وفي جنح الليل ذهب إلى حِمى الموتى ولكنّه أحسّ بالرهبة وساوره الوجل، وشَعرَ كأنّ أصواتاً من وراء الحفائر تتناجى، ثمّ توجه إليه الخطاب. عاد الشاعر صامتاً واجماً من وادي الموتى ولكن لم يستطع أن يفسّر

Archive of SID

www.SID.ir

ويصوّر ما حدث، حتى استطاع أن يترجم هذا الشعور شعراً، بعد أن زال الكثير من روعته، ووصل إلى الدرجة التي يستطيع بها التعبير؛ يقول الشاعر في مقدّمة القصيدة:

مَنِ الطَّارِقُ السَّارِي خِلَالَ المَقَابِرِ ... كخَفْقَةِ رُوحٍ في الدُّجُنَّاتِ عَابِرِ؟
مَنِ الوَجِلُ المَذْعُورُ في وَحْشَةِ الدُّجَى ... تُقَلِّبُهُ الأَوْهَامُ في كلِّ خَاطِرِ؟
يُنقِّلُ في تِلْكَ الدَّيَاجِيرِ خَطْوَهُ ... وَيَخْطُرُ في هَمْسٍ كهَمْسِ المُحَاذِرِ؟

(قطب، ١٩٩٢، ص١٢٥)

أشار الشاعر في هذه المقدّمة للقصيدة مُستخدماً أسلوب الاستفهام الذي يعبّر به عن استغرابه؛ إذ أنّه ارتاد المقابر وسط الظلام الحالك، وكأنّه روح متمرّدة أو شبح من الأشباح، ثمّ يتحدّث وهو مازال يستخدم صيغة الاستفهام ويشير إلى خوفه ورعبه في تلك الليلة القاتمة حيث انتابته الأوهام وأخذت به كلّ مأخذ. يخطو الشاعر أثناء تلك الأهوال خطواتٍ قصيرة مضطربة ويتمشّى مشياً وادعاً وكأنّه بقرة وحش مذعورة تمشي بهدوء وتتنفّس أنفاساً متقطّعة تتخلّلها همسة.

كثرة ظاهرة «التكرار» في شعره

انتشرت ظاهرة التكرار في الشعر الحديث كثيراً واتخذت موقفاً بارزاً في بناء النص والتعبير عن ضمير الشاعر؛ فإنه يمثل عنصراً جوهرياً حاسماً في الصياغة الشعرية (فضل، ١٩٨٧، ص٢٦١). كما «يعدّ وسيلة بلاغية ذات قيم أسلوبية مختلفة» (العبد، ٢٠٠٧، ص١٢٨)، تُبرز الجوانب التي يريدها الشاعر وتكون أقدر على حمل مراده. فالتكرار «أحد الأضواء اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها» (نازك الملائكة، ١٩٨٣، ص٤٣). وفي شعر سيد قطب، يكون لأسلوب التكرار حضوره المكثف، الأمر الذي دعانا إلى رصد هذه الظاهرة عنده وعدّه من ميزات شعره الخاصّة. نضرب بعض الأمثلة من وجود التكرار في شعر سيد قطب:

فمثلاً في تكرار الجملة يعمد الشاعر إلى عبارة معيّنة يكرّرها في أثناء النص وبشكلٍ يهيّئ لها فرصة ليعبّر عن حالة يريد هو بثها. وقد استثمر سيد قطب هذا النمط ليتغنّى بمشاعره وعواطفه، ففي قصيدة (زَفراتٌ جامحةٌ مكبوحة)، يكرّر الشاعر جملتين (إذهب وخلِّفني) مرّتين، تعبيراً منه عن قشعريرة اغترابه المرير:

اذْهَبْ وخَلِّفْنِي هُنَا مُتألِّماً ... لَا تَلقَنِي سَمْحاً وَلَا مُتَجَهِّمَا!
اذْهَبْ وخَلِّفْنِي تَذُوبُ حُشَاشَتِي ... وَيَبُضُّ قَلْبِي مِنْ قَرَارتِهِ دَمَا

(قطب، ١٩٩٢، ص٤٤)

Archive of SID

www.SID.ir

كما يبدو في هذين البيتين كرّر الشاعر تعبير «اذهب وخلّفني» لكي يعبّر عن ألمه ومرارته من سوء معاملة المحبوب إزاءه، فحينما يئس الشاعر من ملاطفة المحبوب وعطفه عليه يطرده من نفسه طالباً منه بإصرار أن يتركه وشأنَه حتّى يقضي ما تبقّى له من سويعات حياته الأليمة ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

رمق سيد قطب الموهوب برهافة الحسّ ودقّة الشعور إلى السماء فاستلهم منها معانٍ سامية تشكل مادّة دسمة لتجربة شعريّة موحية، كما صرّح سيد في قصيدته «في السماء»، أنّ السماء أثارت في نفسه أحاسيسه الدفينة وأنهضت خبايا روحه المستورة ثمّ أراد الشاعر نقل هذه التجربة الفردية إلى المخاطب بأسلوب مُقنع ناجح فيلجأ إلى تقنية التكرار اللفظي ويكرّر ألفاظ (فإذا أنا) خمس مرّات يزيح الستار في كلّ مرة عن تجربة شعوريّة كامنة في نفسه قائلاً:

فَـإذَا أنَـا الـرُّوحُ الَّـتي تَسْمُـو بِهَـا ... دُنْيَـا الحيَـاةِ بِأوْجِـهَا المَنْظُـورِ
فَـإذَا أنَـا النُّـورُ الَّـذِي تَجْلُـو بِـهِ ... تِلْـك الحيَـاةُ غيَاهِـبَ الـدَّيْجُورِ
فَـإذَا أنَـا الشَّـوْقُ الَّـذِي يَحْـدُو بِهَـا ... فَتَغِـذُّ بَـيْنَ مَسَالِـك وَصُـخُورِ
فَـإذَا أنَـا الشِّـعْرُ الَّـذِي تَشْـدُو بِـهِ ... فِي نَشْـوَةٍ وَتَجِيـشُ بِالتَّعْبِيـرِ
فَـإذَا أنَـا الخَيْـرُ المُمَحَّـضُ وَالهُـدَى ... وَالحُـبُّ وَالنَّجْـوَى خِلَـالَ ضَـمِيرِ

(قطب، ١٩٩٢، ص٩٣)

ففي هذه الأبيات يسمّي الشاعر نفسه الروح التي بها يحلّق من دنياه السفلي إلى حياة علويّة، ويشبّه نفسه بالنور الذي تنقشع به ظلمات الحياة الحالكة ومن ثمّ يعبّر عن نفسه بالشوق الذي يدفع الشاعر إلى اجتياز طرق حياته الشائكة والوعرة، كما إنّ الشاعر عبّر عن نفسه بالأنشودة التي يتغنّى بها في حالة مرحة وثملة، وأخيراً جعل نفسه رمزاً للخير والهُدى والحبّ ونجوى الضمير ولا يخفى الأثر الذي تتركه على السامع أسلوبيّةُ التكرار اللفظي التي وظّفها سيد قطب لينقل بها تجربته الشعورية إلى سامعيه في صدقٍ ووفاء.

سيطرة الحزن على شعره

أفضى سيد قطب بوصفه شاعراً رومانطيقيّا على أشعاره طابع الحزن والاغتراب إلّا أن هذا الحزن ليس عاديّاً نراه عادة لدى الرومانسيين بل إنّ حزنه حزن فلسفي ينبع عن رؤيته الخاصّة تجاه الكون والوجود؛ فهو يعبّر في الأبيات التالية عن مشاعر الحزن والأسى عندما

Archive of SID

www.SID.ir

يرى الحياة الدنيا لُعبة كلعبة الأطفال. يعتبر سيد قطب الحياة صدىً قويّاً وصارخاً للأصوات لو بحثتَ عن مصدرها لن تجني سوى الخيبة والتعب ثمّ تمضي أيّام الدهر في نظر الشاعر في رتابة وتكرار، بحيث كلّ يوم يكرّر نفسَه فلم يعُد يشعر أنّه حيّ يُرزق، ذلك لأنّه لم يجد فيها ما يبعث الأمل والرجاء؛ فالشعور الذي يتملّك الشاعر في أغلب الأحيان هو أنّه كائن يضرب في فلاة موحشة هائماً على وجهه، ولكنّه مهما صار في هذالم يزدد إلّا تيهاً وحيرة، فيقول:

إيــهْ يَــا دُنْيَــا وَمَــا أنْــتِ سِــوَى ... عَبَــثِ الأطْفَــالِ فِيمَــا يَلْعَبُــونْ
ضَــجَّةٌ صَــاخِبَةٌ لَــا تَحْتَــوِي ... غَيْــرَ أصْــدَاءٍ قَوِيَّــاتِ الــرَّنِينْ
فَــإذَا فَتَّشْــتَ عَــنْ مَبعَثِــهَا ... لَــمْ تَجِــدْ شَــيْئاً تُخْبِيــهِ الوُكُــونْ!

(قطب، ١٩٩٢، ص١٠٨)

يُذكر أنّ الحياة التي تحدّث عنها الشاعر هو حياة السواد من الناس الذين لا يرون منها إلّا شكلها وصورتها من دون أن يتوغّلوا في بواطن الحياة وأغوارها، فتكون حياة هؤلاء القوم رتيبة متعبة جدّاً فكأنّهم نيام كلّ ما يرونه حُلم من الأحلام، ولذلك أراد سيد قطب في أشعاره هذه أن يوقظ الناس من سباتهم وغفوتهم المستديمة، ويفتح عيونهم أمام آفاق جديدة من الحياة لم يكونوا قادرين على رؤيتها بأفكارهم القصيرة وعقولهم الضيّقة. من الجدير بالذكر أنّ العبث الذي تحدّث عنه الشاعر ليس عبثاً حقيقيّاً لأنّه أنسان متديّن يؤمن بمبادئ دينه الذي يؤكد أنّ العالم صنع الله الذي خلقه بحكمته وقدرته ورسم له غاية حكيمة، فما أبعدَ العبث عن هذا الوجود الذي هو آية باهرة من خالق حكيم مدبّر خلَق كلّ شيء وأحسن خلقه! فيقول سيد قطب:

قَدْ بُعِثْتُ اليَوْمَ أحْيَا مِنْ جَدِيدٍ / فَهُوَ بَعْثٌ مِنْ حَيَاةٍ خَامِدَةْ
مَرَّ نِصْفُ العُمْرِ أوْ كادَ يَزِيدُ / لَهْفَ نَفْسِي - فِي حَيَاةٍ رَاكِدَةْ
فِي حَيَاةٍ لَمْ أجِدْ فِيهَا حَيَاه!
بَلَغَ العُقْمُ بِهَا أقْصَى مَدَاه
وَتَبَدَّتْ بَلْقَعاً مِثْلَ الفَلَاه

(قطب، ١٩٩٢، ص١١١)

Archive of SID

www.SID.ir

النتيجة

النتائج التي تمّ التوصل إليها عبر هذا المقال:

شعر سيد قطب يحمل بصمات رومانسية تميل إلى الأدب الشرقي العرفاني متأثّراً بالأدب العقّاد والحافظ الشيرازي إلّا أنّ النزعة الرومانسية عند سيد قطب تمتاز بالترابط الموضوعي والوحدة العضوية بين أجزاء قصيدته واعتماده في بناء القصيدة على الخيال المجنّح ممّا جعل شعره لوحات تصويريّة فنيّة. يعدّ التناص القرآني من أبرز التقنيات الفنيّة التي عُني بها سيد قطب في شعره والسبب في ذلك ربّما يكون تأثّره الشديد بالتعاليم الإسلاميّة والقرآنيّة التي برز وبشكل أوضح في تفسيره المسمّى بـ«في ظلال القرآن». للتشخيص دورٌ بارز في شعره حيث إنّه أضفى على قصائده روح الحياة والحركة حتّى تحوّلت عناصر قصائده الفاقدة للحياة إلى عناصر حيّة ترتبط ارتباطاً ديناميكيّاً فيما بينها؛ فشعر سيد قطب أشبه ما يكون بالمعرض الذي تُعرض فيه لوحات تصويريّة حيّة انتزعها الشاعر من مظاهر بيئته التي عاشها منذ طفولته وحتّى بلغ أشدّه.

سيطر على شعر سيد قطب الحبّ العرفاني بكلّ رموزه ودقائقه؛ فالحبّ الذي يتحدّث به الشاعر في غزله ليس على غرار الحبّ الإباحي الذي يتغنّى به شعراء الفسق والمُجون بل إنّه الحبّ الذي يقدّمه إلى المحبوب السماوي وهو بعيد كلّ البعد عن العشق الشهواني الذي يكثر عند أصحاب الغزل الجسدي. يهتمّ سيد قطب بشعر حافظ الشيرازي اهتماماً بالغاً فاستقى من مناهله العذب حتّى الارتواء. يعتبر «سيد» شعر حافظ وجبة شهيّة يتغذّى بها الشعر العربي وإنّه مصدر إيحاء استوحى منه الشاعر العربي المزيد من مفرداته ومضامينه العرفانيّة.

وردت في ديوان سيد قطب قصائد يحكي خلالها قصّة خياليّة يبدي عبرها أفكاره وآراءه تجاه الكون والحياة. ظاهرة التكرار تمثّل عنصراً جوهرياً حاسماً في ديوان الشاعر، فيكون لأسلوب التكرار حضور المكثّف في نسيجه الشعري واستخدم الشاعر هذه الآلية الفنية في عمليّة نقل تجاربه الشعوريّة؛ إذ لها مفعولها الكبير في إقناع المخاطبين دون أن يشعروا بالملل والضجر.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

١. الأصفر، عبدالرزاق (١٩٩٩م). *المذاهب الأدبية لدى الغرب*. بيروت: منشورات اتّحاد الكتّاب العرب.

٢. أميري، جهانگير؛ نعمتي، فاروق (٢٠١٢م). «*أسلوبية التكرار في التعبير عن شعور الاغتراب (شعر سيد قطب نموذجاً)*». مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات (علمية- محكمّة)، العدد السابع والعشرون (١)، صص١١٧- ١٣٦.

٣. الأيّوبي، ياسين (١٩٨٠م). *مذاهب الأدب؛ معالم وانعكاسات*. طرابلس: دار العلم للملايين.

٤. البدوي، أحمد محمد (١٤٠٦هـ). *قضيّة الأدب الإسلامي عند سيد قطب*. التوحيد، العدد١٩، صص٩٦-١٠٣.

٥. ـــــــــــــ (١٩٩٢م). *سيد قطب نقاد الأدب (١٠)*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦. ـــــــــــــ (٢٠٠٢م). *سيّد قطب ناقداً*. القاهرة: الدار الثقافية للنشر.

٧. ثروت، منصور (١٣٨٥ش). *آشنايي با مكتبهاي ادبي*. طهران: منشورات سخن.

٨. الجيوسي، سلمى الخضراء (٢٠٠٧م). *الاتّجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث*. ط٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

٩. الحاوي، إيليا (١٩٨٦م). *في النقد والأدب؛ مذاهب فنيّة غربيّة عربيّة*. ط٢، بيروت: دارالكتاب اللبناني.

١٠. حسين، عبدالباقي محمد (١٩٩٣م). *سيد قطب؛ حياته وأدبه*. ط٢، المنصورة: دارالوفاء.

١١. الخالدي، صلاح عبدالفتّاح (١٩٨٩م). *نظريّة التصوير الفني عند سيد قطب*. ط٢. جدة: دار المنار.

١٢. ـــــــــــــ (١٩٩١م). *سيد قطب؛ من الميلاد إلى الاستشهاد*. دمشق؛ بيروت: دارالقلم؛ الدار الشامية.

١٣. الخزامي، آمال (٢٠١٠م). *سيّد قطب؛ في ظلال صاحب الظلال*. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

١٤. الخفاجي، محمد عبدالمنعم (١٩٩٢م). *دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي*. القاهرة: دارالجيل.

Archive of SID

www.SID.ir

١٥. الرافعي، عبدالرحمن (١٩٤٧م). *في أعقاب الثورة المصريّة*. القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة.

١٦. سرباز، حسن (١٤٣١هـ). *سيد قطب وتراثه الأدبي والنقدي*. مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران (فرديس فارابي). العدد العاشر، السنة السادسة، صص٤١-٥٥.

١٧. شلش، علي (١٩٩٤م). *التمرّد على الأدب؛ دراسة في تجربة سيّد قطب*. بيروت؛ القاهرة: دار الشروق.

١٨. العبد، محمد (٢٠٠٧م). *اللغة والإبداع الأدبي*. ط٢، القاهرة: دارالمعرفة.

١٩. عبدالحميد، حسن أحمد (١٤١٦هـ). *أصداء شعر العقاد في شعر سيد قطب*. كلية اللغة العربية، القاهرة، العدد١٤، صص١١٩-١٦٤.

٢٠. العقاد، عباس (دون تا). *شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي*. ط٣، القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة.

٢١. غنيم، كمال أحمد؛ غنيم، حنان أحمد (٢٠٠٨م). *خصائص التصوير الفنّي في شعر سيّد قطب*. مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد السادس عشر، العدد١، صص٤١-٩٤.

٢٢. غنيمي هلال، محمد (١٩٦٤م). *النقد الأدبي الحديث*. ط٣، دار الشعب.

٢٣. فضل، صلاح (١٩٨٧م). *إنتاج الدلالة*. القاهرة: مؤسسة مختار للنشر والتوزيع.

٢٤. فورست، ليليان (١٣٧٥ش). *الرومانسية (رمانتيسم)*. الترجمه للفارسية: مسعود جعفري، ط٢، طهران: سعدي.

٢٥. قطب، سيد (١٩٨٠م). *دراساتٌ إسلاميّة*. ط٥، بيروت؛ القاهرة: دار الشروق.

٢٦. ـــــــــ (١٩٨٣م). *كتب وشخصيّات*. ط٣، القاهرة: دار الشروق.

٢٧. ـــــــــ (١٩٩٢م). *ديوان*. جمعه ووثّقه: عبدالباقي محمد حسين، ط٢، المنصورة: دار الوفاء.

٢٨. ـــــــــ (١٩٩٦م). *مهمّة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر*. كولونيا؛ ألمانيا: منشورات الجمل.

٢٩. ـــــــــ (٢٠٠٦م). *النقد الأدبي؛ أصوله ومناهجه*. ط٩، القاهرة: دار الشروق.

٣٠. ـــــــــ (٢٠٠٨م). *الأعمال الشعرية الكاملة*. تقديم: حسن حنفي، دمشق: مركز الناقد الثقافي.

٣١. مندور، محمد (١٩٥٧م). *الأدب ومذاهبه*. ط ٢، الفجالة: مكتبة نهضة مصر.

Archive of SID

www.SID.ir

٣٢. نازك الملائكة (١٩٨٢م). *قضايا الشعر المعاصر*. بيروت: دار العلم للملايين.

٣٣. الندوي، السيّد أبوالحسن (٢٠٠١م). *مُذكرات سائح في الشرق العربيّ*. دمشق: دار ابن كثير.

٣٤. النمنم، حلمي (١٩٩٩م). *سيد قطب وثورة يوليو*. القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات.

٣٥. النويهي، محمد (٢٠٠٠م). *قضيّة الشعر الجديد*. بيروت: دار الفكر.

٣٦. هيكل، أحمد (١٩٧٨م). *تطوّر الأدب الحديث في مصر*. القاهرة: دار المعارف.

Archive of SID

www.SID.ir